نظرات في سورة يوسف (18)

ليسجننه حتى حين

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

(قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهم أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم).

لقد خاطبت امرأة العزيز النسوة، على مسمع من يوسف عليه السلام، لتستقوي بهن عليه، ومن الواضح أنهن قد بدأن يؤازرنها، ويحاولن إقناع يوسف عليه السلام بموافقتها وتلبية أوامرها، بلغة تزاوج بين الترغيب والترهيب والتزيين، وتُظهر النصيحة والإشفاق عليه من سخط سيدته واضطرارها لسجنه وإذلاله، ومن هنا جاء قول يوسف (يدعونني)، فالدعوة ليست من امرأة العزيز وحدها.

واللافت أن يوسف لم يوجه كلامه لامرأة العزيز ولا للنسوة، بل هو متوجه إلى ربه سبحانه لشدة إيمانه به وقربه منه، وخوف غضبه لا غضب سواه، ولذلك آثر مرضاته على رضاهن، وهان عنده غضب امرأة العزيز وتهديدها أمام غضب الله تعالى وعقابه، فناجى ربه متضرعاً: (رب السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه)، ليس حباً في السجن ولكن من باب أهون الشرين.

وللدكتور أحمد البقري في كتابه (يوسف في القرآن) كلام جميل، عند هذه الآية الكريمة، حيث يقول: " لقد فاضل يوسف عليه السلام بين السجن والصبوة، ففضل لديه السجن على ما فيه من العذاب؛ لأن السجن عذاب بدني، والوقوع في الفاحشة عذاب نفسي، والأول موقوت، والثاني ندم يلح على نَفْسه ما بقي فيه نَفَس، وهو في السجن مظلوم وفي المعصية يكون ظالماً، وهو في السجن سيد نفسه، وخارجه يُدعى ليكون عبد شهواته، والسجن مجال لتذكر الله ".

ويستمر يوسف في استغاثته لربه ، يتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، يسأله سبحانه أن يدركه كيلا يهلك، بأن يصرف عنه كيدهن، وإلا مال إليهن وكان من الجاهلين، فالعلم ضابط للسلوك،

ومخالفته جهل وحمق وانحدار وفساد، وسيان من يتصرف بغير علم ولا هدى، ومن يعلم طريق الصواب ثم يتنكبه ويحيد عنه، وليتهما سيان!!

وخوفه عليه السلام، ذو طبيعة مزدوجة؛ خوف من الجهل لذاته، وهو يعلم خطره، كما أنه يربأ بنفسه أن يصبح من زمرة الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور.

قال سبحانه:(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)، والتعبير بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب؛ ما يعني السرعة في الاستجابة، وذكر الربوبية هنا لإفادة الحماية والنفع، وأضاف الرب إلى ضمير يوسف، تشريفاً ليوسف وبياناً لمكانته وشرفه ومنزلته الخاصة عند ربه. والإتيان بصفتي السمع والعلم لله تعالى لتأكيد أن الله تعالى يسمع دعاء عباده ويستجيب لهم، وأنه سبحانه عليم بنفوسهم وأحوالهم، وبما يكيده أعداؤهم فهو يحبط كيدهم.

أما كيف صرف كيد النسوة عن يوسف فلم يُذكر؛ لأن المهم هو النتيجة وإبراز عناية الله تعالى به وحفظه له، وقد يكون ذلك بأمر مفاجئ أشغلهن عنه، وفض مجلسهن، كما صرف عنه في المرة السابقة كيد امرأة العزيز بالحضور المفاجئ لزوجها.

قال تعالى: (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين)، التعبير بثم يفيد التراخي الزمني عن الحادثة السابقة، كما يظهر أن الأشخاص هنا هم غير الأشخاص هناك.

ومعنى بدا أي ظهر لهم رأيٌ، لم يكن من قبل في تفكيرهم، بأن يسجنوا يوسف، والمقصودون هنا هم العزيز ومن حوله من أهل امرأته، وربما أزواج وأقارب صواحبها، وآخرون من رجالات الدولة، ولم يكن في تفكيرهم السابق سجن يوسف، لأنه بكل بساطة لم يفعل ما يستحق أن يسجن أو يعاقب لأجله، وإن كان أحد يستحق العقاب فهو بالتأكيد امرأة العزيز لا يوسف، وبناء عليه، فيبدو أن أداة العطف(ثم) تفيد كذلك، بُعد ما وقع عما كان ينبغي أن يحدث.

ومجيء الجملة المعترضة (من بعد ما رأوا الآيات) لأجل استنكار هذا الظلم الفادح؛ ذلك أن الإنسان قد يسجن على ذمة التحقيق، فإذا ثبتت براءته أُطلق سراحه، ولكن هنا في قصة يوسف اتخذوا قرار سجنه بعدما ظهرت لهم آيات براءته.

والحق أن إبراز هذا الموقف من الكبراء في حق يوسف، يحمل تعريضاً برجالات قريش الذين كانوا يطلبون آيات ومعجزات مادية كي يؤمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهل سيكون موقف قريش حيال الآيات الكثيرة في هذه السورة وغيرها، كما يقتضي العقل والمنطق، أم سيتعامون عن الحقائق الدامغة والآيات الساطعة والحجج المفحمة، فيركبون رؤوسهم ويتصرفون على النقيض من ذلك، ويكونون مثل أولئك؟ حيث قد كان مقتضى رؤية العزيز وحزبه آيات براءة يوسف، أن يكافأ يوسف أو يرد له اعتباره، وتلاقي امرأة العزيز ما تستحق، وليس اتخاذ موقف على النقيض من ذلك تماماً بسجن يوسف.

ولعل أبرز الأسباب التي دفعتهم إلى اتخاذ هذا القرار، هو أن امرأة العزيز، وربما غيرها أيضاً، لم تتوقف عن مطاردتها وتحرشها بيوسف، فأرادوا إبعاده عنها، كما أن مزيداً من الألسنة في أوساط المجتمع، صارت تلوك في سيرة امرأة العزيز وغيرها من نسوة الطبقة الحاكمة في المجتمع، وحيث إنهم لا يستطيعون إصلاح سلوك نسائهم ولا يمكنهم عقابهن، فإن الحلقة الأضعف برأيهم، هي الفتى المملوك يوسف، فقرروا أن يسجنوه بحيث يعتقد الناس أنه هو المتهم المعتدي ولذلك سجن، ولعلهم أشاعوا أنهم سجنوه لكونه حاول الاعتداء على سيدته، وقد اتخذوا قرارهم بأن يكون السجن (حتى حين) أي لأجل غير محدد، وبناءً على ما يحدث من مستجدات، بعضها يتعلق بتوقف الشائعات.

وقد عبرت الآية عن الذين اتخذوا قرار سجن يوسف بالضمير لا بإظهار شخوصهم؛ أولاً لأن مثل هذه القرارات تتخذ في غرفٍ مغلقة ولا تتخذ في العلن، ويشارك فيها أشخاصٌ عديدون ولا فائدة من تفصيلهم، والأمر الآخر كأن الله عزوجل أهمل ذكرهم من باب أنهم نكرات لا يستحقون أن يُذكروا، وعلى رأسهم العزيز حيث تعاموا عن الحقائق الدامغة والبراهين الساطعة، وأوقعوا الظلم على البريء، وليس غريباً بعد ذلك أن لا يذكر العزيز بعدُ في القصة، وإن ذكرت امرأته وهي معترفة نادمة.

واللافت هنا أن فعل السجن جاء مبنياً للمعلوم (ليَسجننه)، في حين هددت امرأة العزيز بالسجن مرتين مستخدمةً البناء للمجهول: (إلا أن يُسجن)، (ليُسجننّ)؛ وذلك لأنها في الواقع ليست من يحكم بالسجن، ولا هي من تقوم بعملية إدخال السجن، ولكنها قد تشير بذلك، أما في هذه الآية

فالذين اتخذوا القرار هم من أصحاب القرار القادرين على القيام بالسجن، فلذلك جاء بناء الفعل للمعلوم.

ولا يبدو أن لامرأة العزيز دوراً في هذا القرار وإن كانت قد هددت بهذه العقوبة سابقاً، وذلك لأمرين وردا في الآية، أولهما: عبارة (بدا لهم) فالذين قرروا سجن يوسف بدا لهم هذا الأمر ولم يكن من قبل في بالهم، في حين أن فكرة السجن موجودة سابقاً عند امرأة العزيز، والثاني عبارة (من بعد ما رأوا الآيات)، أي الذين رأوا آيات براءة يوسف خاصة من تهمة امرأة العزيز، فهي إذن خارج هذه المجموعة.